المستشفيات والمراكز الصحية بإفريقية في عصر الإمارة الأغلبية

(184- 296هـ/ 800- 909م)

(*)الأستاذ: إبراهيم مفتاح فرج الدهيديه

مقدمـــــــــة:

لم يحظ تاريخ أهل البلاء والأمراض المعضلة والمساكين ، بذات الأهمية التي حظيت بها كتابة تاريخ الأمراء والسلاطين، وأصحاب الوظائف العليا كالقضاة والوزراء وغيرهم، وينطبق ذلك على المتقدمين في الكتابة والمتأخرين أيضا، ونظرا لصمت المصادر التاريخية الأولى، وعدم تناولها هذه الجوانب الاجتماعية، يجد الباحث صعوبة في الكشف عن حياة الطبقات الدونية في المجتمعات السابقة كالمرضى والمحتاجين وموقف حكام البلد منهم.

ولكن كتب تراجم وطبقات العلماء والفقهاء ، تلمّح أحيانا عن بعض المظاهر الصحية والطبية في البلاد المعنيّة، على حسب حالة المترجم له، حيث إن المترجم له في بعض الأحيان يكون أحد أصحاب الأمراض الدائمة أو طبيب يعالج ذلك، ومن هذه النتف والإشارات أمكن للمرء أن يكوّن صورة مبدئية للمستشفيات والمراكز الصحية بإفريقية (تونس حاليا وإقليم طرابلس الغرب وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر)، في فترة حكم الأسرة الأغلبية (184- 296هـ/ 800- 909م).

هذه الأسرة التي تولت حكم البلاد بالوراثة، بمباركة خلفاء بني العباس، وكافحت مشاغبة الجند، ووضعت حد للخوارج، والتفتت للعمارة في البلاد، تجعل المرء يتساءل عن موقفها من طبقات الشعب لاسيما المنكوبة منها، والإجراءات التي اتخذتها حيالهم، كإقامة مؤسسات، ووضع أسس سليمة لرعايتهم؛ وهل توافر الأطباء في البلاد على النحو العام والخاص لعلاجهم؟!

إن ما سبق يجعـــل المرء **يتساءل** عن ثلاثة جوانب على الأقل، وهي: ما موقف أمراء الأغالبة من المرضى وأهـــــل البلاء من أهالي إفريقية (رعيتهم) ؟ وهل كانت لهم مراكز صحية خاصة بهم؟ وأيضا ينقلنا السيـــــــاق عن الطب وظهوره، وتوافر الأطباء الماهرين والمتخصصين من عدمه في البلاد المذكورة.

وبنـــاء على ما ذُكـــــر تم استعراض مجموعـــــة من الموضوعات التي من شأنها مناقشة المجـــــــالات المذكورة سابقا، في هـــــذه الأوراق لمحاولة الوصول إلى

(*) عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ –كلية الآداب –الجامعة الأسمرية الإسلامية

تكـــــــــــوين فكرة عن المستشفيـــــــــات بإفريقية، ونظامها، وإيراداتها، ومرضاها، والأطباء والموظفين الذين يسهرون على عنايتهم، وجاء الحديث عن ذلك على حسب العناوين التالية:

1. التسمية (الدمنة).
2. نشأة الدمنة بإفريقية وأماكنها.
3. المرضى سكان الدمنة.
4. تنظيمات الدمنة وموقف الأمراء وأهل البلد من سكانها.
5. المراكز الصحية الخاصة.

ومن الصعوبات التي تواجه الباحث في هذا الموضوع هي ندرة المادة العلمية التي تتعرض بالحديث إليها، حيث تكاد معلومات مثل هذه لا توجد إطلاقا في المصادر التاريخية، والجغرافية أيضا، اللهم كما ذكر سابقا بعض الإشارات الواردة في كتب الطبقات، وحسب علاقة المترجم له بالموضوع، ولقد تم الاعتماد على مصدرين أساسيين في كتابة هذه الأوراق وهي كالتالي:

1- الدباغ، معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان.

2- المالكي، رياض النفوس.

وكان **المنهج العلمي** الصحيح والسليم هو المتبع في صياغة البحث، حسب التسلسل الزمني، وذكر الكائنة وتذييلها بالشواهد والأدلة التاريخية الدامغة مع التحليل؛ وانتهى البحث بإرفاق خاتمة تتضمن ملخص عن أهم النتائج التي تم استخلاصها من خلال البحث، وتم تذييل ذلك بقائمة للمصادر والمراجع.

التسمية (الدمنة):

كان أهل إفريقية – تونس حاليا – يطلقون على اسم المستشفى مصطلح (الدمنة) [1]، على خلاف ما كان من باقي البلدان الإسلامية، وخاصة المشرق الذين أطلقوا عليه اسم بيمارستان[2]، وبالنظر إلى المصطلح الأخير (بيمارستان أو مارستان) يتبين أنه كلمة فارسية معرّبة وتعني (دار المرضى)[3].

---

(1) - أبو عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، ج1، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م، ص411.

(2) - أحمد إبراهيم الهواري، تاريخ الطب الإسلامي، ط1، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2005م، ص83.

(3) - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التراث، ط7، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2003م، ص574.

بينما نجد أن (الدِّمْنة) بهذا الشكل مثلما رسمها الدباغ[1]، في المعنى اللغوي الدقيق تعني المكان المختلط فيه بعر الحيوان بالطين، وأيضا آثار الناس[2]، ومع ذلك لا يوجد اسم لمستشفيات إفريقية في العصر الوسيط سوى كلمة الدمنة، اللهـــــــم إلا إشارات طفيفة جدا تقـول (حارة المرضى)[3]؛ الأمر الذي يجعل المرء يتساءل من أين أتت هذه التسمية؟ وما سببها؟

إن المتتبع لإنشاء هذه المؤسسة يلاحظ أن أول دمنة تم تأسيسها بالقيروان في أوائل العصر الأغلبي، وكان المكان الذي أنشأت فيه يطلقون عليه أهل القيروان الدمنة؛ واستمرت التسمية حتى بعد بناء المارستان، الأمر الذي جعل أهل البلد يسقطون اسم المارستان، وعرفوا كامل المستشفيات بإفريقية بعد ذلك باسم الدمنة، نسبة إلي دمنة القيروان – عاصمة إفريقية – ويقول ابن ناجي التنوخي (ت 839هـ/1435م)، الذي أكمل كتاب الدباغ[4] وعلق عليه أن معنى الدمنة "موضع سُكنى المجذومين"[5].

نشأت الدمنة بإفريقية وأماكنها:

كما سبق الذكر إن بداية تأسيس الدمنة كان في أوائل العصر الأغلبي، ولكن هذا غير مؤكد تأكيدا جازما، وإنما هو اجتهاد من بعض المؤرخين المحدثين[6]؛ فالمصادر التي أمكن الاطلاع عليها سواء كانت تاريخية أو جغرافية وحتى الأدبية منها لا تذكر تأريخ نشأتها، بل تكاد لا تذكرها من الأساس؛ غير أن كتب الطبقات الخاصة بتراجم عبّاد وزهّاد أهل إفريقية تظهر فيها بعض الإشارات عن هذه المراكز الصحية، وللأسف كل هذه الإشارات لا يمكن الاستفادة منها في إمكانية تأريخ تأسيس الدمنة.

فأقرب إشارة يذكرها المالكي ذُكر فيها الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (201- 223هـ/ 816- 837م)، المعروف بزيادة الله الأول، مقرونا بالدمنة، ولا إشارات قبل ذلك، ومفادها أن الأمير المذكور خرج في ليلة النصف من رمضان من المسجد الجامع بالقيروان،

---

(1) - عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ، معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد الأحمدي ومحمد ماضور، ج2، المكتبة العتيقة بتونس، د ت، ص391.

(2) - جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج5، ط3، بيروت، دار صادر، 2004م، ص304.

(3) - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص138.

(4) - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، تونس، مكتبة المنار، 1964م، ص275. الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص251.

(5) - الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص251.

(6) - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ص274؛ إبراهيم فرغلي، تونس من الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة الأغالبة، ط1، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، 2005م، ص322؛ محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، القاهرة دار المنار، 1988م، ص180.

إلى الدمنة حيث يزور المرضى الموجودين فيها، ويوزع عليهم الأموال[1]، وحسب الظن هذا ما استند عليه المؤرخون المحدثون الآنف ذكرهم في تحديد نشأت الدمنة، إذ يذهب المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب[2]، إلى أنه بالفعل زيادة الله الأول هو من أسس الدمنة التي بالقيروان وتلك التي بسوسة أيضا؛ بل ويجعل تاريخ ذلك ما بين سنتي (210- 220هـ/825- 835م).

والمتمعن في رواية المالكي المُشار إليها سابقا يراوده الشك في أن الدمنة قد تأسست قبل زيادة الله الأول، لأن الرواية تقول وقبل التطرق إلى زيادة الله أن الأمراء الأغالبة كانوا "يأتون إلى جامع القيروان في تلك الليلتين (النصف من شعبان والنصف من رمضان) ويكون فيها من الصدقات أمر كثير، ثم يخرجون من المسجد الجامع إلى الدمنة ويزورون أبا محمد الانصاري ..."[3]، أي أن هذا الحديث وفي نفس الترجمة ذاتها جاء قبل ذكر زيادة الله، الأمر الذي يجعل المرء يعتقد أن الدمنة تأسست قبل عصر زيادة الله الأول، خاصة وأن ابن ناجي أيضا يقول :"أن إتيان زيادة الله (للدمنة) لم يختص به بل كانت عادة أسلافه كذلك"[4]، وهذه العبارة لا تدع مجالا للشك بأن الدمنة تأسست قبل زيادة الله المذكور.

وكيفما كان الأمر، فالظاهر أن بناء هذه المؤسسات الصحية كان في بداية العصر الأغلبي، وبإيعاز من أمراء الاغالبة؛ وبالنظر إلى بغداد عاصمة العالم الإسلامي في تلك الفترة يتبين أنها وحتى سنة (279هـ/892م)، لا يوجد فيها سوى مارستان واحد (الصاعدي)[5]، وهذا ما يؤكد أن نشأت المستشفيات بإفريقية التابعة لبغداد كانت في عهد الأغالبة.

وهذا لا يعني أن قبل هذه الحقبة أي في عصر الولاة لا يعرفون الطب، بل تعاطوه وكان عندهم أطباء الذين أطلقوا عليهم سابقا (فقهاء البدن)[6]، وظلت هذه التسمية حتى بعد ذلك، ولكن أمراء الأغالبة هم من طوروا في الطب من حيث استدعاء الأطباء الماهرين من البلدان الأخرى[7]، وبناء المؤسسات في أغلب المدن الإفريقية؛ ولقد سبق الذكر أن دمنة القيروان هي المؤسسة الصحية الأولى من نوعها في المنطقة، ومن ثم أسس أمراء الأغالبة العديد من المستشفيات الأخرى؛ ثانيها دمنة سوسة، حيث يذكر الدباغ في ترجمة محمد بن أبي حميد

---

(1) - رياض النفوس، المصدر السابق، ج1، ص411.

(2) - ورقات، ق1، ص285.

(3) - المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص 411- 412.

(4) - الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص116.

(5) - عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2007م، ص137.

(6) - الدباغ، معالم الأيمان، ج2، ص336.

(7) - أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: عامر النجار، المجلد الثالث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ت، ص ص 173- 178.

(ت 293هـ/905م)، أن الأخير "خرج من القيروان فسكن دمنة سوسة ..."[1] ، الأمر الذي يؤكد وجودها بالمدينة، بالإضافة إلى إشارة أخرى تؤيد ذلك مفادها أن الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي (261- 289هـ/874- 901م)، قام بزيارة دمنة سوسة عند قدومه إلى المدينة المذكورة[2].

ويبدو أن الأغالبة أسسوا دمنة أخرى بمدينة صفاقس، ويتضح ذلك من خلال ما أورده المالكي[3] في سياق حديثه عن أحد المتعبدين من أهالي صفاقس، حيث كان هذا المتعبد يعد الطعام والحلوى في عيد الفطر وكذلك الأضحى ويذهب به إلى "دار الجذماء"، والملاحظ هنا أن التسمية اختلفت من الدمنة إلى دار الجذماء، والغالب على الظن أن الدمنة أشمل من دار الجذماء، لأن الأخيرة تشمل المجذومين فقط؛ ولكن الدمنة مؤسسة كاملة لها فروع وأقسام تضم المجذومين، والأضراء، وغيرهم؛ وأقيمت دمنة أخرى بمدينة تونس بربض هناك يعرف بربض المرضى[4].

المرضى سكان الدمنة:

احتضنت الدمنة المرضى الذين يعانون من الأمراض المزمنة والمعدية مثل الجذام[5]، والأضراء العمي[6]، ويبدو أن مصطلح (الضرير) لم يُطلق على الأعمى فقط؛ وإنما أطلق على جميع المرضى الذين بالدمنة، من كان أعمى أطلقوا عليه (ضرير البصر)، ومن كان مجذوم أو مصاب بعلة أخرى أطلقوا عليه ضرير البدن، فهذا أبو محمد الانصاري الضرير (ت250هـ/864م)، أحد مرضى دمنة القيروان، يقول عنه المالكي "ضرير البدن والبصر"[7]، أي أعمى وعنده داء في بدنه أيضا؛ وليس بالضرورة أن يكون ضرير البدن مجذوما، فهناك المجذوم وغير المجذوم، إذ يذكر صاحب كتاب معالم الأيمان[8]، أحد العبّاد الذين ترجم لهم أنه ليس بمجذوم وإنما "كانت علته استرخاء في رجليه

---

(1) - معالم الأيمان، ج2، ص251.

(2) - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص9.

(3) - المصدر نفسه، والجزء، ص201.

(4) - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ق1، ص291.

(5) - الجذام: داء يفسد مزاج الأعضاء وهيأتها، ويؤدي إلى تأكلها ويحدث تقرحات وتساقط. ينظر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ج5، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1990م، ص1884؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق، ص1086.

(6) - الدباغ، معالم الأيمان، ج1، ص251

(7) - رياض النفوس، ج1، ص411.

(8) - الدباغ،ج2، ص342.

وجسده كله" بمعنى أنه كان مقعد.

ويتضح من ذلك أن المستشفيات بإفريقية الأغلبية كانت تضم كامل المرضى الذين لديهم أمراض مزمنة؛ ومن حسن الحظ أن كتب الطبقات لاسيما المالكي والدباغ[1]، ذكرت العديد من هؤلاء المرضى، نظرا لصلاحهم وفي الوقت ذاته كانوا من أهل البلاء وسكان الدمنة.

وكانت الدمنة تنقسم إلى عدة أقسام، لأن هناك أمراض معدية لاسيما الجذام، ولابد من وضع أصحاب مثل هذه الأمراض في قسم خاص بهم معزولين عن غيرهم؛ وفي سياق حديث الدباغ عن هاشم بن مسرور(ت307هـ/919م) الذي كان يصنع الحلوى في الفطر والأضحى "وكان يذهب (بها) إلى دار الجذمى بالدمنة"[2]، ومن ذلك يتضح جليا أن للجذمى قسم خاص بهم في الدمنة، مُقسّم إلى عدة غرف، وماجل وحمام خاص بهم[3]، وكذلك توجد سقيفة خاصة باستقبال الزوار إبان ترددهم على المرضى[4].

ويتعذر حصر من كان بالدمنة أو حتى تقديره، حتى وإن كان المؤرخ الذي انفرد بالكتابة في هذا الشأن قد حصر عدد المجذومين في دمنة سوسة بأنهم كانوا خمسة عشر مجذوما[5]، ويحدد بأن ذلك كان وقت زيارة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، إلى الدمنة المذكورة، والغريب في الأمر أنه عندما يتصفح المرء كتب التراجم التي ذكرت هذه الزيارة لا يجد تعداد للمرضى بالدمنة سواء المجذومين أو غيرهم؛ وإنما هناك إشارة لدى الدباغ في ترجمة دحيم الضرير تقول أن هذا الأخير من سكان الدمنة وكان أبو إبراهيم بن محمد بن الأغلب (242- 249هـ/856- 863م) يزوره ، "وهو أحد الأولياء الخمسة عشر الذين كانوا في الدمنة"[6]، أي أن القصد هنا أنه كان بالدمنة خمسة عشر رجلا " من الأولياء الصالحين" حسب الدباغ، وليس عدد المرضى بالكامل.

وتجدر الإشارة إلى أن الدمنة في هذا العصر كانت لا تضم المرضى فقط، بل كانت هناك طبقة من الزهّاد يعيشون مع المرضى ويسهرون على رعايتهم تقربا إلى الله، ففي خلال تعريف أحد المؤرخين للدمنة يقول أنها "مكان يجتمع فيه الزهاد والمرضى"[7]؛ والظاهر أن ظاهرة تردد الزهّاد على الدمنة وسكنهم فيها، كان نتاج وجود بعض الفقهاء من المرضى بالدمنة، الأمر الذي جعل

---

(1) - رياض النفوس، ج2، ص ص137- 142؛ معالم الأيمان، ج2، ص ص111- 117.

(2) - المعالم، ج2، ص342.

(3) - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ق1، ص275.

(4) - المالكي، المصدر السابق، ص141.

(5) - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ق2، ص50.

(6) - معالم الأيمان، ج2، ص11.

(7) - محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، ج2، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص172.

المتعبدون يترددون عليهم، ويقومون بخدمتهم وخدمة غيرهم من المرضى، فضلا عن توافر المساجد في كافة المؤسسات الصحية بإفريقية وإقامة الشعائر الدينية فيها، الأمر الذي جعلها تكتظ بالمصليين والزاهدين[1].

تنظيمات الدمنة وموقف الأمراء وأهل البلد من سكانها:

كانت بناية الدمنة على شكل مربع، يتقدمها باب كبير، تليه سقيفة بُنيت فيها غرف صغيرة أُعدت للموظفين بالدمنة، وعلى جانبي السقيفة مصطبات على شكل مقاعد يجلس عليها الزوار، وبالسقيفة مما يلي الدمنة باب صغير يدخل إلى فضاء غير مسقوف، في جوانبه غرف معزولة بحائط معده لإيواء المرضى[2].

وكانت الغرف الآنف ذكرها مقسمة، كل مجموعة منها مخصصة لمرض معين خوفا من الأمراض المعدية، فكان للجذماء قسم خاص بهم يدعى "درا الجذماء بالدمنة"[3]، لا يقيم فيه غيرهم، وباقي الأمراض بالمثل.

كما تتوافر في دمنة القيروان وغيرها كافة المرافق التي يحتاجها المرضى، ومن يتدبر أحوالهم، فلكل دمنة صهريج لحفظ الماء وتأمينه لهم؛ وحمام خاص بهم[4]، وتوافرت فيها المساجد أيضا، إذ يذكر في دمنة القيروان مسجد يقال له مسجد السبت، وسمي بذلك لأن العبّاد كانوا يجتمعون فيه كل سبت للقراءة والعبادة والذكر، وينسب بناؤه إلى أحد المرضى المعروف باسم أبي محمد الانصاري الضرير (ت 295هـ/907)[5]، ومسجد الخضر[6]، ومسجد آخر يعرف بمسجد الخميس وتسميته على غرار تسمية مسجد السبت، وينسب بناؤه إلى شخص يدعى إبراهيم بن المضاء الضرير (276هـ/889م)[7]، وكذلك في دمنة سوسة مسجد[8]، والظاهر أن باقي المؤسسات التي بالمدن الأخرى فيها مساجد للمرضى على غرار دمنتي سوسة والقيروان، والخلاصة أن الدمنة كانت تحتوي على جميع المرافق التي يحتاجها المريض ومن في خدمته.

---

(1) - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص ص 138- 139- 232.
(2) - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ق1، ص275.
(3) - الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص342.
(4) - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ق1، ص276.
(5) - الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص ص113- 114.
(6) - المالكي، المصدر السابق، ج2، ص139.
(7) - الدباغ، المصدر السابق، ج2،ص174.
(8) - المالكي، المصدر السابق، ج2، ص9.

ولاشك أن لهؤلاء المرضى نخبة من الموظفين متنوعي الاختصاصات لخدمتهم، فكان للدمنة حراسا، وإداريين مهمتهم العمل على نظامها وراحة من فيها، وتلبية متطلباتهم[1]، ويبدو أن عاملات زنجيات كن يعملن على معالجة وتمريض المرضى ويسهرن على راحتهم، إذ يورد المالكي نصا غاية في الأهمية، يروي فيه عن شخصٍ أراد أن يزور مريض بالدمنة يدعى أبوعلي، يقول الزائر " ... فضربت الباب (باب الدمنة) فخرجت إليّ سوداء فقلت لها : أبو علي فقالت ليّ: ليس يدخل الناس إليه، فقلت لها: أعلميه أني أبو الربيع، فأعلمته ثم خرجت إليّ سريعة فقالت ليّ: أدخل إلى السقيفة وجاءت بحصير فقعدت عليه حتى أقبل متكئا على السوداء ..." [2]، يؤكد هذا النص وجود نساء زنجيات يخدمن المرضى بالمؤسسة المعنية، ويستقبلن الزوار ويؤتين بالمرضى لمقابلة زوارهم في السقيفة المعدة للزيارة؛ فضلا عن من كان يخدم المرضى تطوعا، فهذا أبو عبد الله محمد بن أبي حميد السوسي المذكور سابقا كان يخدم المرضى بدمنة سوسة، حتى صار مريضا وانتقلت إليه عدوى الجذام[3]، كما كان بعض المتطوعين في دمنة القيروان يساعدون المرضى المقعدين على النهوض ويحملونهم لقضاء حوائجهم[4].وعالج المرضى واعتنى بهم العديد من الأطباء الماهرين في هذه المؤسسة[5]، وتجد الإشارة هنا إلى أن بني الأغلب هم من أوائل الأمراء بإفريقية المهتمين بالطب، حيث إن الأمير زيادة الله بن الأغلب هو من استدعى الطبيب الشهير إسحاق بن عمران[6]، (ت 279هـ/892م) الملقب بسم ساعة[7]، من بغداد، وبهذا الطبيب يقول أحد المؤرخين[8] ظهر الطب بالمغرب، حيث تتلمذ على يديه عدد لا بأس به أصبحوا فيما بعد أطباء ماهرون، وفي سنة (293هـ/905م)، قدم طبيب أخر على الأغالبة قادما من مصر، وهو أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي[9]، وطوّر هذا الأخير

---

(1) - حسن حسني، ورقات، ق1، ص274.

(2) - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص141.

(3) - الدباغ، معالم الأيمان، ج2، ص250.

(4) - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص412.

(5) - حسن حسني عبد الوهاب، بساط العتيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، ط3، تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 2009م، ص21.

(6) - سليمان بن حسان بن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، بغداد، مكتبة المثنى، بدون تاريخ، ص84.

(7) - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج س كولان و إ. ليفي بروفنسال، ج1، ط5، بيروت، دار الثقافة، 1998م، ص122.

(8) - ابن جلجل، المصدر السابق، ص85.

(9) - ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص141.

من علمه في الطب عن طريق إسحاق بن عمران السالف الذكر[1]، واشتهر أيضا أحمد بن إبراهيم الجزار، وأبوه، وعمه أبو بكر بن أبي خالد الجزار القيرواني في الطب[2]، وكانت هذه النخبة هي النواة الأولى لتطور الطب في بلاد المغرب أجمع؛ وحسب الظن أن كل هؤلاء الأطباء كانت لهم زيارات للدمنة، كيف لا! خاصة وأن إسحاق بن عمران المتقدم ذكره كان يأخذ مرتبا سنويا قدره خمسمائة دينار من الأمير زيادة الله الأول بن الأغلب، الذي كان دائم الزيارة للدمنة، فلا يأمر طبيبه بالكشف عن المرضى على الأقل؟

وورد في ترجمة أبي عبد الله محمد بن مسرور الضرير (ت 295هـ/907م)، أن طبيبا يدعى علي بن ظفر (ت323هـ/935) يسكن إلى جوار المرضى ويحاكيهم، ولاشك أنه كان يعالج المرضى بالدمنة[3]، وكذلك كان الطبيب زياد بن خلفون يزور الدمنة بالقيروان في أيام معينة ويشرف على المرضى وعلاجهم[4].

وتمتع هؤلاء المرضى الساكنين بالدمنة بمختلف أماكنها برعاية اجتماعية جيدة من قِبل أمراء الأغالبة، إذ أن هناك إشارات ونتف متناثرة في كتب التراجم تبين بوضوح مدى اهتمام الأغالبة بالدمنة ورعاية من فيها، وإنفاق الأموال عليهم، فهذا الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (201- 223هـ/816- 837م) كان يخرج في النصف من شعبان والنصف من رمضان من كل سنة ويوزّع الأموال والصدقات على دور العبّاد، والمحارس، والدمنة، وكان جملة ما أعطاه لدمنة القيروان في إحدى هذه المواسم ستمائة دينار، ويأتي معه في تلك الليلتين وزرائه وخدمه وحرسه، ويتفقدون المرضى وما ينقصهم، ثم ينصرفون، ولم يقتصر هذا النظام على زيادة الله الأول فقط، ولكن حتى من جاء بعده، بل ومن كان قبله أيضا، ويؤكد ابن ناجي ذلك في سياق حديث الدباغ عن زيارات زيادة الله المذكورة بقوله: "أن إتيان زيادة الله (الدمنة) لم يختص به بل كانت عادة أسلافه كذلك"[5].

واتبع الأمير أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب (242- 249هـ/856- 863م) أيضا عادة أسلافه وزار دمنة سوسة، حيث تعلّق بأحد المرضى هناك[6]، وكانت له زيارات لدمنة

---

(1) - أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد، طبقات الأمم، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، دت، ص110.

(2) - ابن جلجل، المصدر السابق، ص88.

(3) - الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص260.

(4) - حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ق1، ص ص 277- 278.

(5) - الدباغ، معالم الأيمان، ج2، ص116.

(6) - المصدر نفسه، والجزء، ص111.

القيروان أيضا[1]، وهذا يؤكد مدى استمرارية أمراء الأغالبة على متابعة سير المؤسسات الصحية بإفريقية.

وجاء إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (261- 286هـ/874- 901م) راكب من القيروان ونزل في دمنة سوسة، واجتمع بمرضاها[2]، وعرف عن هذا الأمير أنه كان يعطي الأموال ويأمر بإنشاء وإصلاح المؤسسات، ويقول عنه ابن عذاري أنه "... أعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين..."[3]، ولابد أن هناك نصيب للدمنة من هذه الأموال التي أعطيت للمساكين؛ فضلا عن أنه كان يتصدق على مرضى دمنة القيروان ويرسل لهم مما تنتج مزارعة من ثمار وفاكهة وغير ذلك[4].

وغالب الظن أن الأغالبة خصصوا لهذه المؤسسات أموالا وإيرادات سنوية تعود عليها، لسد احتياجاتها؛ خاصة وأن البلاد في تلك الفترة كانت فيها أحباس[5]، وكان لكل مدينة أحباس خاصة بها ولها شخص مسئول عنها من قبل السلطان، كمتولي أحباس سوسة مثلا[6]، ويُذكر أن من تولى أحباس سوسة على آخر أيام الأغالبة هو عبد الله بن حمود السلمي (ت357هـ/986م)، وكان ينفق واردات الأحباس " في مواضعها" أي في الأماكن التي يرى أنها تحتاج إلى أموال ونفقه، وعلى المساكين[7]، الأمر الذي لا يدع مجال للشك بأن نصيبا وافرا من هذه الواردات كان يذهب لصالح الدمنة بسوسة، كما يتضح من إحدى النوازل أن أرضا بإفريقية كانت حبس، وتسمى بالأحباس، أقيمت عليها دمنة خاصة بالمجذومين[8]، مما يؤكد أن من الأحباس حظ وافر للمؤسسات الصحية، واهتم أهل إفريقية أيضا بتحبيس بعض ممتلكاتهم على المرضى والمساكين

---

(1) - المصدر نفسه، والجزء، ص147.

(2) - المصدر نفسه، والجزء، ص253.

(3) - البيان المغرب، ج1، ص 132.

(4) - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص418.

(5) - الاحباس: هي الأوقاف، وتعني كل شيء وقفه صاحبه من نخل أو كرم أو غيرها يُحبس أصله، وتسبل غلته. ينظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص537.

(6) - المالكي، المصدر السابق، ج2، ص396

(7) - عياض بن موسى السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: على عمر، ج3، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2008م، ص101.

(8) - أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ج7، بيروت، دار الغرب الإسلامي، د ت، ص ص 38- 39.

من أهل البلد، وهناك من حبّس أملاكه على إحدى المستشفيات[1]، وخلاصة القول أن الأحباس كانت من ضمن مصادر تمويل الدمنة.

ومن واجب متولي الأحباس أن يسأل الطبيب عن المرضى ويعطيه الطبيب بدوره تقرير عن حالة المريض، واحتياجاته ومرحلة مرضه، إذ يبيّن ذلك لمتولي الأحباس أن أللمريض حق أخذ المال أم لا؟ وذلك بطبيعة الحال لا يجري على مرضى الجذام والأضراء والمقعدين، بل جرى على المصابين بأمراض أخرى، وقد تكون لهم القدرة على تولي أنفسهم بأنفسهم[2].

لم تكن رعاية أهل الدمنة من قِبل الأمراء الأغالبة فقط؛ بل أن الكثير من أهالي إفريقية من أهل البر والإحسان شاركوا في رعاية مرضى الدمنة، ويذكر أن شخصا يدعى هاشم بن مسرور (ت 307هـ/919م)، معروف بكثرة الصدقة والأعمال الخيرية، وكان يملك فرنا وكلما خرج له الخبز من الفرن، وأعجبه نضوجه، يأمر صبيانه بأن يتصدقوا به على الأضراء في الدمنة[3]، ويذهب إلى دار الجذماء بالدمنة في عيدي الفطر والأضحى ومعه الحلوى، فيوزعها عليهم، ويطعمهم بيده، ويتفقد أحوالهم ويفلي ثيابهم ويقلّم أظافرهم، ثم ينصرف إلى بيته[4].

وفي دمنة صفاقس اهتم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد القشاش (ت 322هـ/934م)، بالمرضى وكان يتردد عليهم، ويعد لهم الحلوى والعطور في كل الأعياد، فكان يطعمهم ويعطر ثيابهم ويواسيهم من أولهم إلى آخرهم ثم ينصرف عنهم[5].

أما دمنة سوسة فتردد عليها شخص يدعى محمد بن أحمد بن يونس (ت331هـ/942م)، وكان يواسي مرضاها ويتفقد حوائجهم، ويهون عليهم ما هم فيه من البلاء[6]؛ ويتبين من الشواهد السابقة أن أهل الخير من أهالي إفريقية كانوا لا يغفلون على الدمنة ومن فيها، سواء كان ذلك في القيروان، أو في سوسة، أو في صفاقس، ولا بد أن الأمر جرى على غيرهن من المدن.

يتضح من ذلك أن الدمنة كانت لها مصادر تمويل كثيرة جعلتها مؤسسة ذات دخل

---

(1) - كمال أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي، مركز الاسكندرية للكتاب، 2008م، ص 31.

(2) - الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص341.

(3) - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص144.

(4) - الدباغ، معالم الأيمان، ج2، ص342.

(5) - المالكي، المصدر السابق، ج2، ص201

(6) - المصدر نفسه، والجزء، ص275.

ساعد على العناية بالمرضى وتوفير الحاجة اللازمة لهم، كما تبين أن أمراء الأغالبة اهتموا بالدمنة وأنفقوا الأموال عليها بصفة مستمرة، وكذلك كان لها قدر معين من أموال الأحباس، فضلا عن ما كان يتصدق به أهل الخير من أهالي البلاد.

المراكز الصحية الخاصة:

ولم يكن بمدن إفريقية مستشفيات عامة على غرار ما ذكر سابقا فقط؛ بل تعدى ذلك إلى إنشاء بعض الأطباء مراكز خاصة بهم يعالجون فيها المرضى بأجر- على شاكلة ما يعرف بالعيادة حاليا- وكانت هذه المراكز تحتوي على حجرة للكشف (سقيفة) وفيها سلم ينقل إلى حجرة أخرى[1]، وتحتوي أيضا على "صيدلية" يتواجد فيها شخص يصنف الأدوية ويبيعها للناس[2].

وأول هؤلاء الأطباء إسحاق بن عمران (ت 279هـ/892م)؛ كان يجلس في موضع من رحاب القيروان على كرسي ومعه قراطيس (ورق أو رق)، ودواة (قلم)، ويكشف على المرضى ويصف لهم العلاج بكتابته على القراطيس، وينصرفون بدورهم إلى محل بيع الأدوية لأخذه ونجح إسحاق في ذلك " فكان يكتب الصفات كل يوم بدنانير"[3]، وأخذ لقب (سم ساعة)، بمعنى أن الدواء الذي يصفه للناس يشفيهم من مرضهم في أقل من ساعة ويرتاحون من وجعهم.

أما صاحب المركز الصحي الخاص الأكبر من نوعه في ذاك الزمن المبكر، فهو الطبيب أحمد بن إبراهيم الملقب بابن الجزار، والمتوفى سنة (369هـ/979م)، وعاش أكثر من ثمانين سنة، أي أنه عاصر نهاية العصر الأغلبي، وعاش الحقبة الفاطمية، حيث أنشأ هذا الأخير سقيفة بالقرب من داره وجعل فيها أنواعا من المستحضرات الطبية والأشربة وكافة صنوف الأدوية، وأقعد فيها فتى يدعى رشيق عالما بما فيها من أدوية؛ واستقبل هو المرضى وكان يكشف عليهم، ويكتب لهم صفة علاجهم ويرسلهم إلى رشيق الذي يعطيهم أدويتهم على حسب ما وصفها ابن الجزار، ويأخذ منهم مقابل ذلك، وكان هذا المركز مكتظ بالمرضى الذين يأتونه من كل حتف وصوب، وعالج عنده أيضا رجال الحاشية والوزراء وعِلْيَة القوم، وما يؤكد نجاح هذا المركز أنه لما توفى ابن الجزار وحصرت ثروته وجد عنده أربعة وعشرون ألف دينار نقدا[4].

---

(1) - المالكي، رياض النفوس، ج2، ص431.

(2) - ابن جلجل، المصدر السابق، ص89.

(3) - المصدر نفسه، ص85.

(4) - المصدر نفسه،ص ص89- 90.

ويتضح من ذلك أنه أقيمت مراكز صحية بإفريقية تعالج المرضى بمقابل ونجحت في ذلك، الأمر الذي زاد من تطور الطب في البلاد من ناحية، وتوافر العلاج والحد من الأمراض ومعالجتها من ناحية أخرى، وكانت هذه المراكز تحتوي على حجرات للكشف، وأخرى للأدوية والمستحضرات الطبية فيها أناس عارفون بصنوف الأدوية.

واللافت للنظر أن البلاد حظيت في تلك الفترة بالعديد من الأطباء الماهرين سواء شاركوا في تطبيب المرضى بالدمنة، أو عالجوا بمقابل لصالحهم، ولاشك أن هذا التطور كان نتاج بيت الحكمة[1]، وهو مركز تعليمي تعلم فيه الطلبة صنوف العلم وعلى رأسها الطب، واهتم الأغالبة الذين أسسوا هذا المركز التعليمي، باستجلاب الأطباء الماهرين، وتعليم الطلاب[2]، مما نتج عنه ظهور وتطور الطب في البلاد، وبالتالي ظهور المؤسسات الصحية.

الخاتمة

بعد هذا العرض اتضح أنه كانت بإفريقية فئة من طبقات الشعب على ما يبدو ليست بالقليلة، وهي فئة المرضى أصحاب العاهات والأمراض المعضلة التي غالبا ما يتعذر علاجها أو يطول.

أهتم الأغالبة بهذه الفئة وأقاموا لهم مؤسسات صحية خاصة بهم، من أهدافها إيوائهم، وعلاجهم، وعزلهم عن المجتمع لاسيما أصحاب الأمراض المعدية منهم.

وقد أطلقوا على هذه المؤسسة اسم الدمنة، نسبة لموضع أقيمت عليه دمنة القيروان، واصطلح أهل إفريقية على هذا الاسم وأصبح يطلق على باقي المؤسسات الصحية في البلاد، وكان بناء الدمنة على نحو يساعد المرضى خلال إقامتهم فيها، فهي تحتوي على جميع المرافق التي من شأنها تكفي جميع احتياجات المرضى، فاحتوت على غرف خاصة بهم معزولة على حسب نوع المرض؛ كل مرض له مكانه الخاص، كما احتوت الدمنة على مسجد لصلواتهم وعبادتهم، وحمام خاص بهم، وصهريج للماء، وسقيفة خاصة للزوار المترددين على المرضى.

كما اتضح أنه كان بالدمنة العديد من الموظفين من كافة الوظائف والتخصصات، الذين سهروا على راحة المرضى، كما عملوا على تسيير إدارة الدمنة، فكان منهم البواب، والممرض، والنساء اللواتي عنين بعيادة المرضى، واستقبال الزوار وغير ذلك.

---

[1] - ينظر عنه: حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ق1، ص192.

[2] - المرجع نفسه، والقسم، ص ص192- 197.

وحضي المرضى بالدمنة برعاية اجتماعية حسنه، من طرف أهالي البلاد وأهل الخير منهم، الذين كانوا يأتونهم في الأعياد والمناسبات الدينية، ويتصدقون عليهم، وينظرون في حاجياتهم، ويطيّبون ملابسهم، ويقلمون أظافرهم، ولا يغفلون عليهم في غالب الأحيان.

ولم تكن الرعاية الاجتماعية من طرف العامة فقط؛ بل كان النصيب الأكبر منها لأمراء الأغالبة ذات أنفسهم، إذ لم تكد تنقطع الإشارات حول ترددهم على الدمنة وتفقد أحوال من فيها، وتعلقهم أحيانا ببعض العبّاد داخلها، وعملوا على توفير الأموال لها وخصصوا لها مبلغا من الأحباس، فضلا عن ما كانوا ينفقونه عليها في بعض المناسبات، كما اهتموا بصيانتها وإنشاء المرافق لها.

وكذلك عمل الأغالبة على توفير الأطباء المهرة بالدمنة، وهم من جلبوا أفضل الأطباء في البلاد لاسيما إسحاق بن عمران الذي ظهر به الطب في المغرب أجمع، ودعم الأغالبة الطب بإنشاء بيت الحكمة ذلك المركز التعليمي الذي كان له الفضل في تخريج أفضل الأطباء بالبلاد، والذين عملوا بدورهم على علاج المرضى في تلك المؤسسات العامة؛ بل ومنهم من أسس مؤسسة صحية خاصة لنفسه، عالج فيها الناس، وكانت تحتوي على حجرة للكشف وأخرى لتوفير كافة صنوف الأدوية والمستحضرات الطبية.

ومن ذلك يتبين أن الإمارة الأغلبية اهتمت بالطب وتطوره وتعليمه، هذا من جانب؛ ومن جانب أخر عملت على إنشاء مراكز صحية للمرضى لاسيما المكفوفين، والمجذومين، والمقعدين تؤويهم وتهتم بهم؛ وبناء على ذلك يصح لنا القول بأن ما عمله الأغالبة في هذا الشأن كان نواة تطور الطب والمؤسسات الصحية في بلاد المغرب، ساعد أهل البلاء من الأمراض المعضلة على هم الزمان الذي ابتلوا فيه.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

1. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة، (ت 668هـ/1269م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: عامر النجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون تاريخ.
2. ابن جلجل، أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي، (ت 377هـ/987م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، بغداد، مكتبة المثنى، بدون تاريخ.
3. الجوهري، إسماعيل بن حماد، (ت 393هـ/1002م)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1990م.
4. الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، (ت 696هـ/ 1296م)، معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبي القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت 839هـ/1435م)، تحقيق: محمد الأحمدي أبي النور ومحمد ماضور، تونس، المكتبة العتيقة، بدون تاريخ.
5. ابن صاعد، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي، (ت 462هـ/1070م)، طبقات الأمم، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ.
6. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج . س كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط5، بيروت، دار الثقافة، 1998م.
7. عياض، القاضي عياض بن موسى السبتي، (ت 544هـ/1149م)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: علي عمر، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2009م.
8. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (ت 817هـ/1414م)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف نعيم العرقسوسي، ط7، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2003م.
9. المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، (ت 494هـ/1100م)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994م.
10. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي، (ت 711هـ/1311م)، لسان العرب، ط3، بيروت، دار صادر، 2004م.

11. مقديش، محمود بن سعيد، (ت 1228هـ/1813م)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988م.
12. الونشريسي، أحمد بن يحيى، (ت 914هـ/1508م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، بدون تاريخ.

المراجع:

1. إبراهيم فرغلي، تونس من الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة الأغالبة، ط1، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، 2005م.
2. أحمد إبراهيم الهواري، تاريخ الطب الإسلامي، ط1، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2005م.
3. حسن حسني عبد الوهاب، بساط العتيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تقديم: محمد العروسي، ط3، تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 2009م.
4. ـــــــــــ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، تونس، مكتبة المنار، 1966م.
5. عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2009م.
6. محمد محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، القاهرة، دار المنار، 1988م.
7. كمال أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار المعرب للونشريسي، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، 2008م.